اول النصر في هذه المعركة

•

ساءت الحال يوم الاربعاء ٤٨/١/٢١ فبدت بغداد فيه موحشة على احتشادها، مكفهرة على تلألؤ صباحها ، مخيفة على ما عهدناه فيها من أنسة وسرور ووداعة .

وكان الامر بين الطلاب والحكومة قد تفاقم وكبر عن التقارب . ولا انسى ان الناس تذكروا (الزعامات) وتلفتوا الى شفيع منها يقف بين الصفين فيوقف هذا الشر ينال من دماء الطلاب والشرطة معاً ، ويردي بهؤلاء وهؤلاء شبولة كنا ندخرها جميعاً لخير الوطن.

ولكن انى نجد هذا الشفيع والزعماء الجديرون بان يقفوا بين الصفين كانوا ممن لا تأخذ الحكومة بنصحهم ، وكان عزهم عن مثل هذه الشفاعة احد الاخطاء التي أدت الى مثل هذه الحال .

أما السياسيون الذين يدعون الزعامة بصلف وتوقح فقد كانوا

يحوكون المؤامرة لاستمرار هذه المعركة وراء الستار .

وما كنا بعد اعتزال اولئك ، ولؤم هؤلاء مستطيعين اكثر من قول كلمة نوجهها للاحرار ندعوهم بها الى الرفق والهوادة ومعالجة الاصلاح باداة السلم .

على أن المعركة تجاوزت الاقوال في هذا اليوم وانكشف الغبار عن قتلى كثيرين كان في الطليعة من صرعى الطلاب فيهم شمران علوان أحد طلاب دار المعلمين الابتدائية ورشيد سعيد الاعظمي أحد طلاب ثانوية الاعظمية . ثم استحر النضال واخشوشن ، وركبت فيه الحكومة متن العسف فنصبت الرشاشات على سطوح المنازل ، واسوار المستشفى نفسه لترهب طلاب كليتي الطب والصيدلة ومن يحتشد فيها من طلاب الكليات الاخرى .

كما اوفقت من جانب آخر كثيراً من رجال الاحزاب وقادة الطلاب الاحرار وعطلت بعض الصحف في طراز من العنف لا تشبهه الا سيرة الحجاج من قبل .

---

(١) مما قلته في هذا الموضوع ما ورد في (اشتات) ٢٢ـ١ـ٤٨ .

اتمنى ان نستعين في جهادنا بروح الحب ، وفلسفة الرفق ، فانهما أعون على النجاح ، واجرى مع الحياة . كونوا صلاباً في عقائدكم ، اشداء في مبادئكم ولن تحتاجوا وانتم في قمة الصلابة والشدة الى شيء من العنف.

تعجبني فلسفة (غاندي) .. انه يحارب بالصوم اعضل مشاكل الدماء ، والصوم سلاح عنيف ولكنه من مزاج السلم والصفاء ، والسكينة ، وليس بضاره ان تكون له هذه الصفات ، ولا بمنتقص من ايمانه بشيئاً .

الى آخر ما جاء على هذا الغرار في تقرير الاسلوب الذي ننتفع به — في رأيي — الاصلاح .

ولم يترك الطلاب وحدهم يواجهون هذه المحنة ، وإن كانوا جنودها البواسل بل امدتهم الاحزاب بالاحتجاجات ، والصحف بالمعارضة العنيفة ، والاطباء والاساتـــذة بالاستقالة ، والاندية بالوجوم والتهيؤ للانفجار ، فكان ذلك كله مما صنع النصر لهم ، وعمل في الجبهة معهم .

بيان الوصي الاول

غدوت صباح الاربعاء ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ الى مكتبي في جريدة الساعة فاجتزت في شارع الرشيد ، ثورة لا يهدأ عرامها ، وهيجاء تتفجر حماستها عزيمة صادقة ومضاء منطلقاً .

كانت بغداد تضطرم وتتوهج بما تضطرم وتتوهج به في حركاتها الكبار وايامها الوطنية الغر ، ومـا أدري ايهما كان يتمطى بنفسي وأنا أشق تلك الصفوف المحتشدة تملأ الرحب من جماهير الطلاب ، وحشود المرابطين والمرابطات على أرصفة الشارع من أهل بغداد ، — ما أدري أيهما كان يتمطى بنفسي : الزهو والكبرياء بهـذا المظهر الوطني العظيم ، أم الالم لهـــذه المعركة يمتحن بها الاخ بحرب أخيه ، وكلا الصريعين من دم هذا الوطن و (لحمـــه) وترابه ومائه ، وضوئه وهوائه .

وحين القيت بنفسي على الكرسي وراء المكتب لأقرأ صحف الصباح كان هذان العاملان يتنازعانني بعنف ويصرفانني اليهما عمـا سواهما .

ولم يمض علي في المكتب غير قليل حتى رن التلفون الى جنبي

وكان الذي يكلمني مدير الدعاية ، ويريدني أن اواجه وكيل رئيس الوزراء السيد جمـــال بابان ، ولكني رفضت ، فقال : اذن معالي وزير الداخلية يرغب ان يراك ، فقلت له : لن ارى هـــذا ولا ذاك ولا غيرهما من المسئولين ، قال : ولكن لهما معك حديث مهم ، فأجبته : لا تطل الحوار ، المسألة من ناحيتي مبتوت بها ، وليس لي حديث معهما حتى يستقيلا .

بهذا انهيت الكلام معه وخرجت الى مجلس النواب . وكانت اروقته تتمخض بنوعين من النشاط متناقضين ، اما الدور (الطابق) الاعلى – وهو مقر الاعيان – فكان يتدارس وسائل (دزرائيلي) في مواجهة الموقف ، ويتالىء الحكومة – بعد ان انتهت الى هـذا الحد من الحرج – على استعمال الشدة وكانت الخطة تتجه الى غلق المدارس جميعاً وتفريق الطلاب واعلان الاحكام العرفية .

اما الدور (الطابق) الادنى – وهو مقر النواب – فكان ركن من اركانه يضم أعضاء الجبهة الدستورية الثلاثة عشر وعلى رأسهم الشبيبي والفارسي ، وكان هؤلاء يتدارسون عبر (الباستيل) ولكن بهدوء وسكينة يبلغان حد الوجوم . لقد كانوا يستنكرون أشد الاستنكار سيرة الحكومة ، ولكنهم كانوا يخشونهـا لأنهم كانوا يشكون بدرجة الوعي الشعبي .

*

وكنت على موعد في البلاط بمواجهـــة صاحب السمو الوصي الامير عبد الاله ، ولم البث عند رئيس التشريفات الملكية السيد تحسين قدري الا ريثما حسوت القهوة وادرت معه الحديث في انكار

اغلاق المدارس واستهجان هذا الاسلوب الذي لم يعد ملائماً لروح هذا العصر ، ثم أذن لي فسلكت هذه السكة من حديقة البلاط التي سلكتها مراراً كثيرة من قبل . واجتزت الرواق الى الغرفة الموصلة الى مكتب ولي العهد المعظم ، وكان الحارسان من جنده الخاص يقفان كالمعتاد بقامتيهما المديدتين كالمثالين لا يطرفان ولا يتحركان فكأنهما غرسا في الاعماق ، أو سمّرا في الارض .

وكان الامير واقفاً في صدر مكتبه يتطلق وجهه بالبشاشة التي عهدتها كلما رأيته ، ويفتر ثغره بابتسامة رقيقة ، وكانت الارائك القليلة على نظامها الرتيب ، وكابه الضخم يتبختر في تتايه وكبرياء .

ولما جلس سموه وجلست لم يكن يبدو عليه شيء من القلق ، كأن جو بغداد السياسي كان يقطر من الصفاء والصحو ، وتلك سمة الملوك ورباطة جأشهم .

تلطف اول الأمر فسأل عن (احوالي) ثم استطرد فسأل عن (الساعة) وقال: لا يتسع وقتي هذه الايام لقراءة الصحف. لذلك اترك قراءتها الى المساء لأتصفحها قبيل النوم ، ولكني اغفو حين ابدأ بالقراءة ، فاذا انتبهت في الصباح لفت سمعي (خشخشة) على السرير فألتفت فاذا الجريدة التي اردت قراءتها في المساء هي التي تحدث هذا الصوت .

فقلت : (الساعة) يا سيدي معارضة هـــذه الايام شديدة في المعارضة .

قال : لا بأس ولكن عهدتها صديقة لصالح جبر .

فقلت : لم تكن صديقة له ، ياسيدي، ولن تكون له عدواً لأنها

لا تعادي ولا تصادق اشخاصاً ، بل تعادي وتصادق الاعمال ، وهي بعد ذات مبدأ في خدمة البلاد وارتياد المصلحة ، وليست المعاهدة الجديدة منها في خل ولا خمر .

فوجم سموه لحظة ثم قال: وماذا الآن في بغداد ؟

فقلت : لن استطيع — يا سيدي — ان اداورك او اكذبك حين اجيب . وقد يلذ اصحاب المصالح من الحافين بمقامك الكريم ان يداوروا أو يكذبوا . أما أنا فالمصلحة التي اتوخاها هي المصلحة العامة ليس غير . وفي بغداد الآن سوء يتكاثف ويزداد لحظة فلحظة ، واسوأ ما في هذا السوء ان الحكومة تعلن ان المعاهدة الجديدة من صنع سموك .

وانها لتريد بهذا الاعلان ان تحمي المعاهدة من الرفض وتحصنها من النقد ، اذ انها تظن ان اقترانها باسمك الكريم يجعل فيها مناعة .

بينما يرى الناقدون ان الترويج للمعاهدة بهذا الاسلوب يضيف اليها ضعفاً جديداً باعتبار سموك غير مسؤول. على انها بلغت من اجماع الرأي على رفضها محلاً لا يمنعها فيه من سخط الشعب شيء . لذلك أرى ان نسبتها الى سموكم سياسة لا يستطيع صانعوها أن يدعوا صوابها .

قال سموه : ولكن الحقيقة اني لم اعقدها . وكل ما في الامر اني كنت أقدر أن شعبنا الكريم يميل الى تعديل معاهدة (١٩٣٠) فأبديت رغبتي في لندن بتعديلها على هذا الاساس . اما بنودها وما يتصل بها من الخطوات الرسمية فليس مما شاركت به .

قلت : ولكن الرأي العام لا يعرف شيئاً من هذه الحقيقة ، ومن حقه ان يعتقد خلافها لأن الحكومة اعلنت غـــير مرة على مسمع من سموكم ان المعاهدة الجديدة من عملكم ،وزادت في اثبات ذلك فنشرت برقية بيفن – وليس له ان يبرق اليكم – التي يهنىء سموكم فيها بنجاح العراق في هذه المعاهدة .. !

قال سموه : ولكن الواقع هو ما قلته لك .

قلت : نعم يا سيدي ،ولكن لن ينتفع الناس بهذا الواقـــع اذا عرفته انا وحدي . واذا كان لي ان اقترح فارى احد امرين : إما ان تقال الوزارة لقاء هذا الاعلان على الاقـل ، فتلاقي جزاء سوء تصرفها من جهة ، وتكون اقالتها اشعاراً برغبتكم السامية الصريحة برفض المعاهدة ، واما باذاعـــة بيان صادر من البلاط يصحح الخطأ الذي وقع .

*

لم يجبني سموه بشيء ، ولم تنطفىء بشاشته ولكنها بهتت ، وبدا عليه التفكير ،وتلفت بحركة سريعة الى التلفون الذي كان الى جنبه.

عندئذ نهضت للانصراف وودعت سموه وخرجت الى مكتبي . فقد ارضيت ضميري فقمت بما استطعت من الواجب الذي كان يسلط عليّ في الصباح عاملي الزهو والألم ، ويورطني في حـــيرة نفسية لم أجد منها مخرجاً بغير مسعاي هذا سواء أوفق او لم يوفق.

*

وبعد ان رجعت الى مكتبي استدعاني وزير الداخلية بواسطة الشرطة هذه المرة. وقد فهمت المغزى من استدعائي بهذه الواسطة ،

والدعوة صريحة بان الاعتقـــال ينتظرني إذا امتنعت . وكانت الدعوة ذات طابع من اللياقة والمجاملة فنهضت ، ولكني لم أجـد وزير الداخلية وقيل لي انه في البلاط حين سألت عنه .

ولأجل ان اطمئن الشرطة تلفنت الى ضابط المركز ان وزير الداخلية غير موجود ، فاذا شئتم جئتكم واذا شئتم فانا في المكتب ، فطلبوا اليّ البقاء في مكتبي إلى ان يعود الوزير .

*

ماذا في البلاط ..؟

هذا ما اردت ان اعرفه . وعلمت ان سموّ الامير استدعى بعد خروجي من حضرته الوزراء واركان السياسة في العراق ليعقـــد مؤتمراً يبحث الوضع الراهن .

ودعي في نحو الساعة الثانية زوالية قرابة خمسة وعشرين سياسياً فيهم من اصحاب الفخامة سماحة الصدر والمدفعي وحكمة سليمان والباجه جي وارشد العمري ، ومن اصحاب المعالي الشيخ محمد رضا الشبيبي ونصرة الفارسي وجعفر حمنـــدي وعبد العزيز القصاب (رئيس النواب) ونجيب الراوي وصادق البصام وعبد المهدي المنتفكي . ومثل الحزب الوطني الديمقراطي معالي السيد كامل الجادرجي وحزب الاستقلال معالي السيد مهدي كبـــة ، وحزب الاحرار معالي السيد علي ممتاز الدفتري .

أما وزراء الحكومة القائمة فحضر منهم اصحاب المعالي جمال بابان (وكيل الرئيس) وضياء جعفر وزير المواصلات وجميـــل عبد الوهاب وزير الشؤون الاجتماعية ويوسف غنيمة وزير الماليـة

وعبد الاله حافظ وزير التموين وتوفيق النائب وزير الداخلية وتوفيق وهبي وزير المعارف .

ولم يترك الاجتماع هذا دون كتبة يحصون على القائل قوله لئلا يؤثر احدهم العافية بارتجال رأي يراه كي يتخلص به من الموقف الموقت ، فكان عليهم جميعاً ازاء هذا الرقيب من السجل ان لا يتملصوا ولا يروغوا فهم بين قوتين كبيرتين : الشعب وهذا يريد رفض المعاهدة ، وبريطانيا وهذه تريد تصديقها .

وكثير من الحاضرين انصار للمعاهدة من قبل ، ترى أيسجلون وفاءهم لها ؟ وهذا الشعب تنفتح عيناه حتى ليقرأ الغيب ! أم يسجلون رفضهم لها ؟ ومن يدري فقد تصير الامور الى نهاية اخرى وتجد المعاهدة عوناً على البقاء ؟

انه امتحان بلا ريب .

أما اصحاب المبادىء الشعبية فلم يحسوا بحرجه ، لانهم اصحاب الرأي من قبل في عدم رجحان المفاوضة في هذا الظرف وعلى يد هذا الوفد . لذلك كان الصدر وسليمان ورؤساء الاحزاب في امان من هذا الامتحان ، فأعلنوا رأيهم بوجوب رفض المعاهدة . ورأى رأيهم من وزراء الحكومة القائمة يوسف غنيمة وعبدالاله حافظ ، وتبعهم الحاضرون جميعاً مؤثرين في هذا الامتحان رضى الشعب على رضى الانكليز .

إلا جمال بابان وجميل عبدالوهاب[1] وضياء جعفر فقد ايدوا المعاهدة

(١) حدثني معالي جميل عبد الوهاب في مناسبة ، عن موقفه هذا فبرأ نفسه وألقى التبعة على جمال بابان في تفاصيل لا نذكرها الآن .

بحماسة، وأما عبد المهدي المنتفكي فقد أيدها ايضاً ولكن بتردد وفتور. فكان بهذا اضعف الحاضرين واقربهم الى التخاذل والوهن .

وفي الحق لقد كان الموقف حرجاً جداً، دقيقاً جداً . ولا نذيع سراً — كما يقول الصحفيون — اذا قلنا إن شيئاً من المكاشفة جرى في هذا المؤتمر، وربما كان من الحسن بقاؤه مطوياً الآن، ولكن تقرير الموقف كان من الدقـــة بمكان ، ولم يكن تشهياً امتداد الجلسة ست ساعات .

وأخيراً تقرر بالاجمـــاع ان يطمئن سمو الامير شعبه بالبيان التالي :

« بناء على اهتمام حضرة صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد المعظم بشؤون البلاد العامة والاوضاع الحاضرة، ونظراً لرغبة سموه الملكي في الاستئناس بآراء بعض اهل الرأي فقـــد تفضل سموه الملكي بدعوة رؤساء الوزارات ونائب رئيس مجلس الاعيان ورئيس مجلس النواب وقسم من الاعيان والنواب وممثلي الاحزاب السياسية فاجتمعوا في البلاط الملكي العامر الساعة الثالثـــة بعد ظهر اليوم بحضور هيئة الوزارة .

وقد عرض المجتمعون آراءهم بخصوص مسودة لائحة بورتسموث العراقية — الانكليزية . وقد اجمعت آراؤهم على انها لا تحقق اماني البلاد وليست اداة صالحة لتوطيد دعائم الصداقـة بين البلدين ، سيما وان مجلس الوزراء لم يقر بعد تصديق المعاهدة المذكورة. ولهذا فان صاحب السمو الملكي وولي العهد المعظم يعـد الشعب العراقي بانه سوف لا تبرم اية معاهدة لا تضمن حقوق البلاد وامانيها الوطنية ».

لو لم يصدر بيان الوصي

أفرخ روع بغداد بعد صدور البيان ،واستراحت الى شيء من الطمأنينة ، فأفرج عـــن المعتقلين والصحف المعطلة، وبات الناس مستريحين من ثرثرة الرصاص الملعلع .

ولا حاجة بي إلى القول بان الحجز ارتفع عني انا ايضاً فالموقوفون في السجن أفرج عنهم ولما اصل انا الى الموقف .

وكان هذا البيان منفذاً او كالمنفذ الى تهدئة الثائرة وتسكين الرأي العام .وكانت الحياة القلقة المتعبة في حاجة الى هدنة. لذلك أقبل السياسيون والكتاب من المستقلين والاحزاب جميعاً عـــلى البيان يعلنون انه ضمانة برفض المعاهدة ، ويهنئون الوصي بموقفه .

وقد علقت انا على البيان بالكلمة التالية :

« كان منظوراً في مثل هذه الازمة ان يتدخل زعيم نافذ الزعامة فينقذ الموقف المتأرجح تأرجح السفينة الضالة بـــين امواج نوء عاصف .

فقد اتسعت الثغرة بين الشعب في نقمته على المعاهدة التي سميت بمعاهدة (بورتسموث) وبين الحكومة في دفاعها عن هذه المعاهدة بحكم كونها بدأت بعقدها .

وليس في العراق – وذلك مما نأسف له – زعيم او هيئة لهـا صلاحية السيطرة على ميدان يتدافع فيه الشعب والحكومة عـلى ضفتي هوة يوشك ان لا يكون لها جسر يصل بين طرفيهـا يصلح للعبور منه الى نقطة من نقاط الالتقاء . وهنـا موضع الخطر، لان

التدهور هو المصير المحقق لكلا الفريقين المتناوشين على ضفتي الهوة.

ولكن في سمو الوصي – على أنه غير مسؤول – جهة زعامة مدخرة لمثل هذا الظرف العصيب. وذلك وحـــده كان موضع الرجاء في حل تلك الازمة وارجاع المياه الى مجاريها. فكان مؤتمر البلاط، ثم صدر على اثره بيان أعلن عن سموه للرأي العام «ان معاهدة لا يمكن ان تعقد اذا لم تحقق الآمـــال الوطنية». ولو لم يصدر هذا البيان المحتشد بآمال الامة ورعشاتهـــا الخافقة باشواق الشعب لاتسع الخرق على الراقع.

لن تكون – اذن – معاهدة لا تحقق آمالنا .. بهذا الوعـــد الجازم الصريح تضامن حامي العرش مع الشعب فيما اراده هـــذا الشعب الكريم من تحقيق امنيته في رفض معاهدة صنعت لمصلحة الانكليز خاصة. وليست هذه المعاهدة فقط هي التي تخفق، بـل ستخفق كل معاهدة لا يقرها الشعب وفق هذا الوعد الكريم.

وليس ذلك عجيباً. بل هو المنتظر من حامي العرش الممثلة فيه رغبات الامة وآمال البلاد. فليس بنا من حاجة – والحال هذه – الى الاستفاضة بحسنات هذا الوعد الكريم الذي جـاز عما لا نرجوه الى ما نرجوه من استقرار نحن أحوج ما نكون اليه في مواجهة الخطوات المقبلة من صياغة نصوص المعاهدة التي نرضاها على ضوء الواقع وفي نطـــاق كرامتنا الوطنية.

واني إذ اذكر لسيد البلاد هذا الموقف بالفخر والمجادة احب ان اتوجـــه الى النواب بكلمة قلتها لاخواني منهم شفهياً وهي ان عليهم من دفع هذه المعاهدة واجباً لا يسقطـه عنهم التطور الذي

حدث على هذه المعاهدة . وهـــذا الواجب يفرض عليهم ان لا يترددوا في رفضها - ولاأظن أحداً يتردد في رفضها بعد هـــذا التطور . ولكن الركود الذي كاد يعزلهم عن التأثير في تطوير الموقف من المعاهـــدة الملغاة يدعوني الى الفاتهم بما يجب عليهم نحو المعاهده في نصها الجديد المنتظر. وانما أدعوهم الى ذلك ليكونوا مركزاً للثقل في الامور الصعاب . فليس من السهل ولا من الطبيعي ان يعتزلوا الجهاد في هـــذه الامور متكلين على شعور الشعب وعلى تـكليف سمو الوصي بتوسط الميدان في كل ازمة .

لقد قلت لبعض أصدقائي كونوا نواباً بحق لتجلوا الشبهـــة التي تقف في النفوس من نيابتكم. واني لاقولهـا لكم مرة اخرى في انتظار ان نعترف لكم بهذه النيابة . »

*

وكان هذا البيان في عرف التقاليد السياسيـة اقالة للوزارة . وقد انتظر الناس استقالتها بعده وتحدثوا كثيراً عن قرب وقوعها. وكان من الافضل ان تبادر هي الى الاستقالة بعد ان اصبحت ثقلا على النفوس والاسماع والابصار .

والواقع ان السكينة الموقتة التي عقبت البيان لم تكن غـير فترة استراحة تتجمع للوثبة على الوزارة حين يصل فخامة جـــبر واعضاء وفده .

كما ان الحكومة او السياسة الانكليزية لم تنظر الى هـــذه الاحداث باهتمام بل رأت فيها ضربا من اللعب غير الجاد ، وجـدير بها ان تهدأ حين ترى الجد ..!

لذلك لم تستقل الوزارة . بل طيرت برقية الى صالح جبر تدعوه الى الحضور بسرعة لتسوية المشكلة ، واصلاح الحال . وطير هو قبل مجيئه تصريحاً يتهم فيه فهم العراق بانه لم يتسع لفهم المعاهدة ، وانه آت على عجل لافهامه منها ما لم يفهم بتأديب الخدامين ، الذين استغلوا غيابه .

ومن الغريب ان يكون تصريحه هذا موافقاً بالنص لكلام بيفن الذى القـــاه يوم السبت ٢٤ / ١ / ٤٨ في مجلس العموم اذ استعرض سياسة بريطانيا في العالم وعرض للعراق فيما عرض له من البلدان فخصه بما نقله عنه فخامة (صديقي السيد صالح جبر) » .

وبينما ضج النـــاس في مناقشة السيد صالح ناقشت انا بيفن بمقال علقت به على سياستنا الخارجية ، كما بحثت سياستنا الداخلية بمقال آخر ، يوم وصول الوفد المفاوض من لندن الى بغداد .

وكان لهذين المقالين اثر بالغ في النفوس . أما السيـد صالح فقد غضب وافتتح أعماله بعد عودته بتعطيل « الساعة » سنة كاملة على سنة « جزاء سنمار » .

ولم يكن فيها من سبب للسخط غير انها مجدولة المنطق ، صادقة التصوير ، صافية الذهن .